

العمدة لابن رشيق القيرواني

بمستلم
الأستاذ عبد الرؤوف مخلوف

الأستاذ المساعد بالمعهد العالي للفن بالقاهرة

٤٥٦ هـ . وتحقيق ذلك كله مما أطلت مناقشته في رسالتي
« ابن رشيق ونقد الشعر » .

وأما أبوه فرشيق ، كان مولى رومياً من موالى
الأزد ، وكان بعض منافسيه غيره أنه ليس عربياً بالدم
والنسب ، فما زاده ذلك إلا إصراراً على إعلان أصلته
بالدم في الروم ، وولائه في العرب ، وذلك إذ يقول :
أما أبي فرشيق لست أنكره

قل لي أبوك وصوره من الخشب

ثم قال : « ما أبغى به أباً ، ولا أرضى بمذهبه مذهباً ،
رضيت به رومياً لا دعيّاً ولا بدعيّاً » وهو في هذا يعرض
بابن شرف الجذامي الذي قالوا : إن شرفاً اسم لوالدته
ولأنه كان مطعون النسب .

وكانت صناعة رشيق صياغة الذهب ، وفي أحضان
هذه الصنعة نشأ الوليد وتفتحت على الذهب عيناه ،
حتى إذا أحس من نفسه ميلاً إلى الأدب نزع من المسيلة
إلى القيروان يدرس على مشيختها في الجامع الكبير ،
ويتلقى عنهم علوم اللغة فلما قال الشعر وقال منه ما رفعه
إلى مصاف الشعراء المقدمين وصل حبله بحبل المعز
ابن باديس الصنهاجي حاكم المغرب يومئذ ، وقال فيه من

قلما نقرأ لكاتب معاصر في النقد الأدبي ثم لا نجد
له إشارة إلى كتاب « العمدة في صناعة الشعر ونقده »
أو استشهداً ببعض ما جاء فيه ، أو تعقيباً على ما عسى
أن يكون ورد في ذلك الكتاب الذي ألفه ابن رشيق
القيرواني في مطلع القرن الخامس الهجري ، أو في
الربع الأول منه على التحقيق .

وابن رشيق هذا هو أبو علي حسن المنسوب إلى
القيروان ، والمولود سنة ٣٩٠ هـ بقرية المسيلة إحدى
قرى المغرب ، وعلى عدة أميال من تونس من جهة
الإسكندرية .

وكانت وفاته سنة ٤٥٦ هـ في مازر بجزيرة صقلية
على التحقيق الراجح .

وأما ما ذهب إليه بعضهم من أنه ولد سنة ٣٨٥ هـ
أو سنة ٣٧٠ هـ ، وأنه مات سنة ٤٦٣ هـ وفي تونس
فلا وجه له لأن أقدم المصادر وهو الذخيرة لابن بسام
ذكر أن مولده كان في المسيلة ونسبه إليها فقال :
« ابن رشيق المسيلي » ، وابن رشيق نفسه يذكر ذلك ،
ويذكر كابن بسام أيضاً أن ولادته كانت سنة ٣٩٠ هـ ،
كما ثبت عندي بأدلتها أن وفاته كانت في مازر سنة

الشعر ما جعل هذا يقربه ويدنيه من مجالسه ، حتى
ضمه إلى شعراء بلاطه ، أولئك الذين كان يباهى بهم
الشعراء في بلاط الفاطميين بمصر وبلاط العباسيين في
العراق ، ولا عجب فقد كان قيام الدويلات خيراً
وبركة على الحركة الأدبية آنئذ .

ومن قول ابن رشيق مخاطباً ابن باديس هذا ،
أبياته التي يقول فيها :

وذيل له رجل طحون

لما نزلت به ويد زجوج

يطير بأربع لا عيب فيها

لظهران الصفا منها عجيج

خرجت به عن الأوهام سبقا

وقل له عن الوهم الخروج

إلى الملك المعز أبي تميم

أمر بمن سواه فلا أعيج

وأبياته التي يمدحها بها أيضاً فيقول :

ذمت لعينك أعين الغزلان

قمرأ أقر لحسنه القمران

ومشت ، ولا والله ما حقف النقا

مما أرتك ولا قضيب البان

يابن الأعزة من أكابر حمير

وسلالة الأملاك من قحطان

من كل أبلج أمر بلسانه

يضع السيوف مواضع التيجان

وتوثقت صلة الشاعر بالملك ، فضمه إلى كتاب

ديوان الإنشاء برياسة أبي الحسن علي بن أبي الرجال ،

وقد أظهر صاحبنا من الكفاية في عمله ما يقربه أيضاً إلى

قلب أبي الحسن ، فرفع إليه كتابه على ما منرى ،

وأخذ يطريه ويمدحه كلما سنحت فرصة ، وكان

أبو الحسن هذا شاعراً يعجب شعره ابن رشيق فيروى
منه بين الفينة والأخرى في كتابه العمدة كأن يقول :
ومن قول السيد أبي الحسن - أدام الله عزه -
في صفة كاتب بالبلاغة وحسن الخط :

فضل الأنام بفضل علم واسع

وعلا مقامهم بفصل المنطق

وحكى لنا وشى الرياض وقد وشت

أقلامه بالنقش بطن المهرق

ثم يقول : « فبلغ ما أراد من الوصف في اختصار
وقلة تكلف » .

ثم يذكر له أيضاً أنه قال :

إذا مشقت ممناك في الطرس أسطرا

حكيت بها وشى الملاء المنضد

يروق مجيد الخط حسن حروفها

ويعجب منها بالمقال المسدد

ويعقب على البيتين بقوله : « وهذا الشعر كالأول

في الحز ، وإصابة المفصل ، وإن أبا الحسن لكما

قال سميه أبو الطيب خاتم الشعراء :

علم بأسرار الديانات واللغى

له خطرات تفضح الناس والكتبا

بل كما قال ولى نعمته وشاكر منته - يريد

نفسه - :

لأنى لأعجب كيف يحسن عنده

شعر من الأشعار مع إحسانه

ما ذاك إلا أنه در النهى

يفد التجار به على دهقانه

وهكذا بقى ابن رشيق يعيش في كنف المعز ،

وتحت ظل أبي الحسن ، حتى إذا مات هذا سنة ٤٢٥ هـ

واصل حياته في قصر المعز إلى أن كانت فتنة القيروان

وغارة المغيرين عليها ، ونزوح ابن باديس منها إلى المهديّة سنة ٤٤٩ هـ فإنه هو أيضاً قصد مع سيده إلى المهديّة ، وأقام فيها إلى أن تركها قاصداً جزيرة صقلية ، فأقام بها حتى وافاه الأجل في مازر إحدى مدن الجزيرة سنة ٤٥٦ هـ

ولا نعرف أنه انقطع عن المعز إلا من خلال شعر قاله وأشار فيه إلى أنه انقطع عنه فترة عاد بعدها نادماً على ما كان منه ، وذلك إذ يقول :

ولولا شقائي لم أغب عنك ساعة
ولا رام صرفي عن حياتك صارف
ولكنني أخطأت رشدي فلم أصب
وقد يخطئ الرشيد الفتى وهو عارف

كتاب العمدة

ألف ابن رشيق ما يزيد على ثلاثين مؤلفاً ، بين كتاب ورسالة ، وقد أثبت ذلك وأحصى في رسالتي « ابن رشيق ونقد الشعر » لكن الكتاب الذي خلد اسم الرجل ووضعه في مصاف الخالدين من أعلام العرب ، والذي وصل إلينا هو كتابه « العمدة في محاسن الشعر وآدابه » أو « العمدة في صناعة الشعر ونقده » .

والكتاب ألف في القيروان أثناء استمتاع ابن رشيق بحياة الرضا والسعة في كنف المعز وظلال أبي الحسن على بن أبي الرجال ، يدل لذلك أنه يرفع الكتاب إلى صاحبه هذا فيقول بعد حمد الله والصلاة على نبيه : « أما بعد فإن أحق من جنى ثمر الأبواب واقتطف زهر الآداب ، متزهاً في عقول الحكماء ، متفكهاً في أقاويل العلماء ، بالغاً بهيمته أعلى المراتب ، خاطباً لنفسه أسنى المطالب . . . من عرف للعلم حقه وفضله ، وسلك به طريقه وسبله ؛ وأكرم في الله مثواه ونزله ، وخص

بالقرب ذويه وأهله ؛ فاستوجب من جميل الذكر ، وجزيل النحر ، ما هو أزين في الدنيا ، وأبقى في الأخرى ، كالسيد الأئمة ، والفد الأوحى ، حسنة الدنيا ، وعلم العليا ، باني المكارم ، وآبى المظالم ، رجل الخطب وفارس الكتب أبي الحسن على بن أبي الرجال الكاتب ، زعيم الكرم وواحد الفهم . . . إلى أن يقول . . . ولم اسم كتابي هذا باسم السيد - زاده الله تعالى سمواً - لأكون كجالب التمر إلى هجر ، ومهدى الوشى إلى عدن ، لكن تزيئاً باسمه الشريف ، وذكره الطيب ؛ واستسلاماً بين يدي علمه الطائل وأدبه الكامل إن قصرت عن غرض رمية

أو زل فكر أو نبا خاطر
لأنني فيه على نية

يخبر عن باطنها الظاهر

ولما عدلت في الحال عن حضور مجلسه الباهر ومنعني الإجلال من مناسبة خلقه الزاهر وطال اشتياقي إلى تلك الطلعة الكريمة . . . نفضت جراب صدري ، وانتقدت كنز معرفتي ، وأيقنت أن صورة الإنسان فضيلة عن القلب واللسان ، وأن استحقاقه للفضل إنما هو من جهة النطق والعقل ، فثلث له نفسي وأهديتها إليه ، ومثلت بها حقيقة بين يديه ، إذ كانت الأنفاس منوطة بالأنفس ، والمرء لولاهما موات ملقى لا خير فيه . . . والسيد - أدام الله عزه - أعلم بمعذرتي ، وأقوم بحجتي من أن أعرض خزفي على جوهره ، أو أقيس وشلي بأبحره ، بل أستقبله وأسترشده ، وأستعفيه وأستنجده . ثم إنني لا أظهر حرفاً من كتابي هذا إلا عن أمره وبعد إذنه ، لأكون به أقوى ثقة ، وله أشد معة ، فإن وقع منه بموقع ، وحل من قبوله في موضع ، بلغت الإرادات ورجوت الزيادات .

وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه

وأول الغيث قطر ثم ينسكب

وللا سترته ستر العورة وطرحته طرح القلامة لعل
الله يحدث بعد ذلك أمراً ، أسأله حسن التوفيق والهداية ،
وأرغب إليه في العصمة والكفاية بمنه ولطفه ورحمته «
ذلك ما يقوله ابن رشيق في رفع الكتاب إلى
أبي الحسن على بن أبي الرجال ، فاذا فرغ منه ختمه
بأبيات يخاطبه فيها أيضاً فيقول :

إن الذي صاغت يدي وفي

وجرى لساني فيه أو قلبي

مما عنيت لسبك خالصه

واخترته من جوهر الكلم

لم أهده إلا لتكسوه

ذكرأ تجده على القدم

لسنا نزيدك فضل معرفة

لكهن مزايد الكرم

فاقبل هدية من أشدت به

ونسخت عنه آية العدم

لا تحسب الدنيا أبا حسن

تأني بمثلك فائق اللهم

وهكذا يكون الكتاب إنما كتب في عهد أبي الحسن

على بن أبي الرجال ، وأبو الحسن هذا مات سنة ٤٢٥ هـ

فيكون الكتاب كتب قبل ذلك التاريخ بيقين ، ويكون

ما ذهب إليه - احتمالاً - الأستاذ أبو البركات عبدالعزيز

الميمنى من أن في الكتاب أبياتاً تقتضى أن يكون صنفه

بالمهدية بعد السنة ٤٤٩ هـ وهي سنة انجلاء المعز إلى

المهدية - اللهم إلا أن يكون أضاف هذه العبارة فقط

بالمهدية « يريد قوله : « ومن قصيدة صنعتها بديهة

بالمهدية ساعة وصولي إليه (إلى المعز) أدام الله عزه . .

. . . الخ الأبيات » .

أقول يكون ذلك الاحتمال أبعد ما يكون من الواقع
لأنه لا يعقل أن يظل ابن رشيق زهاء ستين عاماً هي كل
عمره تقريباً لا يؤلف شيئاً ، ثم يؤلف العمدة على ما هو
عليه كثرة مادة وأصالة فكرة ، وغنى بالرواية في آخر
العمر سنة ٤٤٩ هـ ، ثم يكون « أتم الأنموذج وقرأصة
الذهب بالمهدية أو صقلية » كما يقول الميمنى فقد كانت
هذه الفترة في حياة الرجل أعنى من سنة ٤٤٩ هـ إلى
أخريات العمر سنة ٤٥٦ هـ فترة فتن واضطرابات ،
اضطرتته إلى أن يلقي رحلته كل يوم في بلد ، فن
القيروان إلى المهدية إلى صقلية ، وتلك حال لا تعين
على تأليف ، ولا تسعف بكتابة .

وأما العبارة التي يشير إليها الميمنى وأن فيها ذكر
المهدية ، فلم لا يكون ابن رشيق وفد على المهدية والمعز
بها قبل الفتنة فقال قصيدته تلك ؟ ومن الذي قال إن
المعز لم يذهب طول حياته إلى المهدية إلا سنة ٤٤٩ هـ .
بعد فتنة في القيروان ، وما الذي يمنع من أن يكون
تردد عليها قبل ذلك فأنشده ابن رشيق أبياته التي
منها :

إلى الملك المعز أبي تميم

أمر بمن سواه فلا اعيج

في بعض زوراته لها ، والمهدية كانت من المدن
الداخلية في ملكه ، وولى عليها ابنه تيمياً .

ألا إن الرأي أن العمدة ألف قبل سنة ٤٢٥ هـ :

والميمنى نفسه رجوع عما أثارته في نفسه كلمة ابن رشيق
المتقدمة ، وإن يكن وجهها « بأنها ألحقت بعد إتمام
الكتاب » . ولكن حتى هذا التوجيه لا ضرورة إليه

فالكلمة تأخذ مكانها في الكتاب على أنه لقي المعز في المهديّة أول عهده بلقائه وقبل أن يكتب كتابه وقبل سنة ٤٤٩ هـ .

وأما عن بداية تأليف الكتاب فقد رجعت في كتابي « ابن رشيق ونقد الشعر » أنه بدأ كتابته سنة ٤١٢ هـ . لأسباب شرحها هناك ولا نطيل بذكرها هنا ، وإنما ننقل الحديث إلى موضوعات الكتاب فإنها نقطة الارتكاز في هذا المقال .

موضوع العمدة

الكتاب في جملة معقود للحديث عن الشعر ومن ثم جاء عنوانه العمدة في صناعة الشعر ونقده أو العمدة في محاسن الشعر وآدابه كما في النسخ المتعددة .

يقول ابن رشيق . . . وجدت الشعر أكبر علوم العرب ، وأوفر حظوظ الأدب ، وأحرى أن تقبل شهادته وتمثل إرادته لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من الشعر لحكمة » وروى لحكمة ، وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته ، فيستنزل بها الكريم ويستعطف بها اللئيم » مع ما للشعر من عظيم المزية ، وشرف الأبيّة ، وعز الأنفة وسلطان القدرة ، ووجدت الناس مختلفين فيه ، متخلفين عن كثير منه ، يقدمون ويؤخرون ، ويقولون ويكثرون ، قد بوبوه أبواباً مبهمة ولقبوه ألقاباً مبهمة ، وكل واحد منهم قد ضرب في جهة ، وانتحل مذهباً هو فيه إمام نفسه ، وشاهد دعواه ، فجمعت أحسن ما قاله كل واحد منهم في كتابه ليكون « العمدة في محاسن الشعر وآدابه » إن شاء الله ، وعولت في أكثره على قريحة نفسي ونتيجة خاطري خوف التكرار ، ورجاء

الاختصار ، إلا ما تعلق بالخبر وضبطته الرواية فإنه لا سبيل إلى تغيير شيء من لفظه ولا معناه ليوثق بالأمر على وجهه .

ويمكن رد أبواب الكتاب في جملة إلى ثلاث مجموعات : الأولى وتناول الشعر والمجتمع ، والثانية ويتحدث فيها عن الشعر ونقده ، والثالثة أبواب لا تمت إلى الشعر إلا من بعيد وعلى وجه التأول وأدنى مناسبة . وعلى هذا يذهب ابن رشيق يتناول الأبواب واحداً فواحداً ؛ وأولها تلك الجملة التي يتحدث فيها عن الشعر والمجتمع ، وما له فيه من جليل الشأن وكبير الخطر ، ويفتحها بباب يجعل عنوانه « باب في فضل الشعر » ويقول فيه : « العرب أفضل الأمم وحكمتها أشرف الحكم لفضل اللسان على اليد ، والبعد عن امتهان الجسد إذ خروج الحكمة عن الذات بمشاركة الآلات ، ولا بد للإنسان من أن يكون تولى ذلك بنفسه أو احتاج فيه إلى آلة أو معين من جنسه » . ثم ما يزال ابن رشيق يقول في ذلك إلى أن يقول : « ومن فضائل الشعر أن الكذب الذي اجتمع الناس على قبحه ، حسن فيه ، وحسبك ما حسن الكذب واعتقر له قبحه فقد أوعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب بن زهير لما أرسل إلى أخيه بجير ينهيه عن الإسلام ، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم بما أحفظه ، فأرسل إليه أخوه : أن ويحك ، إن النبي أوعدك لما بلغه عنك — وقد كان صلى الله عليه وسلم أوعد رجلاً بمكة ممن كان يهجو ويؤذيه فقتلهم — فان كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لا يقتل من جاء تائباً ، وإلا فانج إلى نجائك فانه والله قاتلك ، فضاقت به الأرض » . . فأتي كعب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنشده بعد أن استأمنه :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

متيم لثرها لم يفد مكبول

أنبت أن رسول الله أوعدني

والعفو عند رسول مأمول

مهلا هداك الذي أعطاك نافلا

لمة القرآن فيه مواعيط وتفصيل

لا تأخذني بأقوال الوشاة فلم

أذنب - ولو كثرت في الأقاويل

يقول ابن رشيق : فلم ينكر عليه النبي صلى الله

عليه وسلم قوله ، وما كان ليوعده على باطل .

ثم يعقد بعد ذلك باباً يرد فيه على من يكره الشعر

ويروي عن النبي أنه قال « إنما الشعر كلام مؤلف

فما وافق الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحق منه

فلا خير فيه » ثم يذكر من أشعار الخلفاء والقضاة

والفقهاء ليؤيد القضية . وينقل الحديث بعد إلى ما صنع

الشعر بالناس ، وكيف أنه رفع منهم ووضع ، وأنه

« يرفع من قدر الوضيع الجاهل مثل ما يضع من قدر

الشريف الكامل ويسنى من مروءة الدني كما يدني من

مروءة السرى » ثم يخرج من ذلك إلى شفاعات الشعر

للشعراء ، واحتفاء القبائل بشعرائها ، ثم يتحدث عن

القال والطيرة فيه ، ثم عن مضاره ومنافعه ، وما قد

يجره الشعر على قائله كالذي كان من عمر بن الخطاب

مع الخطيئة حين هجا ابن بدر بأبياته المشهورة ، ثم يذكر

أبيات أبي الدهان التي يقول فيها :

وللشعراء السنة حداد

على العورات موفية دليلا

ومن عقل الكريم إذا اتقام

وداراهم مداراة جميلة

إذا وضعوا مكاويهم عليه

وإن كذبوا فليس هن حيلة

ثم يعقد باباً يذكر فيه من تكسب بالشعر ، ومن

أنف من ذلك ، وأن العرب لم تكن تتكسب به ،

« وإنما يصنع أحدهم منه ما يصنعه فكاهة أو مكافأة عن

يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر إعظاماً لها كما قال

امروء القيس يمدح بني تيم ، رهط المعلى :

أقرحشا امرئ القيس بن حجر

بنو تيم مصاييح الظلام

لأن المعلى أحسن إليه وأجاره حين طلبه المنذر بن

ماء السماء .

وعلى هذا كانت العرب تقول الشعر حتى نشأ

النابعة الذيباني فدح الملوك ، وقبل الصلة على الشعر .

فسقطت منزلته وتكسب مالا جسيماً حتى كان أكله

وشربه في صحاف الذهب والفضة ، وأواني من عطاء

الملوك . فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجراً يتجر به

في البلدان حتى قصد به ملك العجم فأثابه وأجزل عطيته

علماً بقدر ما يقول عند العرب » .

ثم يختم حديثه عن هذه الناحية وأغنى بها « الشعر

في المجتمع » بحديث عن تنقل الشعر في القبائل وأنه كان

في الجاهلية ، في ربيعه ، فكان منهم مهلهل واسمه عدى

والمرقشان .. ثم تحول الشعر في قيس فبنهم النابغتان . .

ثم استقر في تميم ومنهم أوس بن حجر شاعر مضر في

الجاهلية .

وينقل الحديث في الكتاب بعد ، إلى الجانب النقدي

المتصل بمدارسة الشعر من حيث فنيته ومنزلته ، ويستغرق

الجزء الأكبر من مجهود ابن رشيق ، ويستفتح به باب

يذكر فيه القدماء والمحدثين ، وأن كل قديم من الشعراء

حدث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله ، ثم يذهب

وينقل الحديث بعد إلى ماهية الشعر وحده وبنيته ،
ثم إلى قضية اللفظ والمعنى وإلى أيهما يرجع الفضل ،
ويذكر في ذلك آراء العلماء والنقاد واختلافاتهم ،
ويتحدث بعد عن الطبع والصناعة ، وعن المطبوعين من
الشعراء والمصنعين ، ويذكر أن المطبوع هو الأصل
الذي وجد أولاً ، والمصنوع وإن وقع عليه هذا الاسم
فليس متكلفاً تكلف أشعار المولدين لكن وقع فيه منه .
« والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو
تطابق أو تقابل ، فتترك لفظة للفظ ، أو معنى لمعنى
كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرهما في فصاحة الكلام
وجزائته ، وبسط المعنى وإبرازه وإتقان بنية الشعر ،
ولإحكام عقد القوافي ، وتلاحم الكلام بعضه ببعض
حتى عدوا من فضل صنعة الخطيئة حسن نسقه الكلام
بعضه على بعض في قوله :

فلا وأبيك ما ظلمت قريع

بأن يبنوا المكارم حيث شاءوا

ولا وأبيك ما ظلمت قريع

ولا برموا لذلك ولا أساءوا

بعثرة جارهم أن ينعشوها

فيغبر حوله نعم وشاء

فيلبني مجدها ويقم فيها

ويمشى إن أريد به المشاء

وإن الجار مثل الضيف يغدو

لوجهته وإن طال الثواء

وإني قد علقت بحبل قوم

أعانهم على الحسب الثراء

وكذلك قول أبي ذؤيب يصف حمر الوحش

والصائد :

ينقل من آراء النقاد في ذلك إلى أن يقول : « ولم أر في
هذا النوع أحسن من فصل أتى به عبد الكريم بن إبراهيم
فانه قال : قد تختلف المقامات والأزمئة والبلاد فيحسن
في وقت ما لا يحسن في آخر ، ويستحسن عند أهل بلد
ما لا يستحسن عند أهل غيره ، ونجد الشعراء الخذاق
تقابل كل زمان بما استجيد فيه ، وكثر استعماله عند
أهله بعد ألا تخرج من حسن الاستواء وحد الاعتدال ،
وجودة الصناعة وربما استعملت في بلد ألفاظ لا تستعمل
كثيراً في غيره ، كاستعمال أهل البصرة كلام أهل
فارس في أشعارهم ، ونوادير حكاياتهم - قال : والذي
أختاره أنا : التجويد والتحسين الذي يختاره علماء الناس
بالشعر ، ويبقى غابره على الدهر ، ويبعد عن الوحشية
المستكره . ويرتفع عن المولد المتحل ويتضمن المثل
السائر والنشيب المصيب والاستعارة الحسنة .

يقول ابن رشيق : وأنا أرجو أن أكون باختيار

هذا الفصل وإثباته هنا داخلا في جملة المميزين إن شاء

الله ، فليس من أتى بلفظ محصور يعرفه طائفة من الناس

دون طائفة لا يخرج من بلده ، ولا ينصرف من مكانه

كالذي لفظه سائر في كل أرض ، معروف بكل مكان .

وليس التوليد والرقعة أن يكون الكلام رقيقاً سفساً

ولا بارداً غثاً ، كما ليست الجزالة والفصاحة أن يكون

حوشياً خشناً ولا أعرابياً جافياً ولكن حال بين حالين »

وهكذا لا يقف ابن رشيق عند حد النقل ولكن

يجاوز ذلك إلى إبداء الرأي والإدلاء في كل مسألة

بدلو ، يدل به على بصر بنقد الشعر ، ومعرفة بجيد

الكلام ورديته ، وشروط ذلك كله وصفاته .

ثم يتحدث عن المشاهير من الشعراء ، وعن المقلين

منهم والمغلبين ، وعن رغب عن ملاحاة غير الأكفاء

ثم يذكر طبقات الشعراء .

فوردن والعيوق مقعد رائي
الضرباء خلف النجم لا يتسلع

فكر عن في حجرات عذب بارد
حصب البطاح تغيب فيه الأكرع

فشر بن ثم سمعن حسا دونه
شرف الحجاب وريب فرع يقرع

فنكرنه فنفرن فامترست به
هوجاء هادية وهاد جرشم

فرمى فأنفذ من نحوص عائط
سهماً فخر وریشه متصمع

فبدا له أقراب هاد رائعا
عنه فعيث في الكنانة يرجع

فرمى فالحق صاعدياً مطمراً
بالكشج فاشتملت عليه الأضلع

فأبدهن حنوفهن فهارب
بذ مائه أو بارك متجعجع

يقول ابن رشيق : فأنت ترى هذا النسق بالفاء
كيف اطرده ولم ينحل عقده ولا اختل بناؤه ، ولولا
فقه الشاعر ومراعاته إياه لما تمكن له هذا التمكن .

وعلى هذا النحو يمضي ابن رشيق يناقش الموضوعات
فيذكر الأبواب . وإذا كان في حد الشعر أنه موزون
مقفى ، فإنه يعقد باباً يتحدث فيه عن الأوزان وآخر
يذكر فيه التقفية والتصريع ، ويستغرق في ذلك جملة
تقارب خمسين صفحة من الجزء الأول من ص ١١٣ -
١٥٨ . ويتميز حديثه في الأوزان والتقفية والتصريع من
حديث العروضيين بأنه يتجاوز الشكل الخارجى إلى
الحديث عن الحس الفنى والتذوق للأوزان والتقفية
والتصريع ، وكيف أن الذوق هو الذى يحكم في الشعر

وليس ما قال العروضيون ، على أن المطبوع - فيما
يرى - لا يحتاج إلى علم الأوزان والقوافى ، وإنما هو
علم يستعين به المضعوفون .

ثم يذكر ابن رشيق الرجز والقصيد ، وأن النقاد
يخصون الرجز بالمشطور والمنهوك وما جرى مجراهما ،
وأما القصيد فطويل الأبيات ، ومستوفاهما ، وليس الأمر
على ذلك عنده لأن الرجز ثلاثة أنواع غير المشطور
ثم يذكر القريض وأنه عند أهل اللغة الشعر الذى
ليس برجز كما قال النحاس ، ويستكمل ذلك بحديث
عن القطع والطوال ، ومواطن هذه وتلك ، والمشهورين
بهذا وذاك من الشعراء .

ثم يعقد باباً للبديهة والارتجال ، والبديهة فيما يرى
« ما فيه الفكرة والتأييد » وأما الارتجال فما كان انهمازاً
وتدققاً لا يتوقف فيه قائله كالذى صنع الفرزدق حين
نبا في كفه السيف فإنه قال مرتجلاً :

فإن يك سيف خنان أو قدر أبى
لتأخير نفس حينها غير شاهد

فسيف بنى عبس وقد ضربوا به
نبا بيدى ورقاء عن رأس خالد

كذلك سيوف الهند ننبو ظلماتها
ويقطعن أحياناً مناسط القلائد

ولو شئت قط السيف ما بين أنفه
إلى علق دون الشراسيف جاسد

ويجرحه ذلك إلى الحديث عن عمل الشعر وشحذ
القرينة له ، وكيف تمر بالشاعر أوقات وخلع ضرر
فيها أهون عليه من قول بيت ، فاذا تهادى الشاعر على
ذلك قالوا عنه : أصفى وأفصى كما يقال في الدجاجة
إذا انقطع بيضها ، ويقال فيه أجفل كما يقال لحافر
البئر إذا بلغ في حفرة جهلا تحت الأرض ، ويقال له

أكدى وأفحم من فحم الصبي إذا انقطع صوته من شدة البكاء ، فإذا ساء لفظ الشاعر قالوا اهتر فهو مهتر .

وهكذا يكشف ابن رشيق بمقالته هذه عن معرفته باللغة وأصول استعمالها حين تستعمل في معان اصطلاحية تشبه ما استعملت فيه أصلاً وتمت إليه بسبب ويأخذ بعد في ذكر المقاطع والمطالع والمبدأ والخروج والنهاية ، ويسلمه ذلك إلى أثر البيئة في الشعر ، وما ينبغي للشاعر أن يأخذ به نفسه من الملاءمة بين ما يقول وبين البيئة والعصر اللذين يعيشهما ومن ذلك أنه لما كانت العرب ودواها الإبل ولها صبر على الأسفار والنصب ، وقلة الماء والعلف ، خصوصاً بالذكر دون غيرها ولم يكن أحدهم يرضى بالكذب فيصف ما ليس عنده كما يفعل المحدثون ، وأما امرؤ القيس فإنه لما كان ملكاً ذكر خيل البريد والفرائق ، على أنه لم يستغن عن ذكر الإبل للعادة التي جرت .

ثم يأخذ ابن رشيق بعد في أبواب من البلاغة بعد أن يسوق من كلمات الأقوام في تحديدها ، فيذكر الإيجاز وينقل فيه تعريف الرمانى له وأنه ضربان الأول مطابق لفظه لمعناه ، لا يزيد عليه ولا ينقص كقولهم : سل أهل القرية ، والثاني : ما فيه حذف للاستغناء عنه كقوله تعالى : واسأل القرية .

ثم يتكلم عن البيان ، والنظم ، والمخترع والبديع ، والمجاز ، والاستعارة ، والتمثيل والمثل السائر ، والتمثيل عنده ضرب من الاستعارة ، ويسوق شواهد مما جاء في القرآن الكريم ، ويتكثر من ذلك ما لم يتكثر من غيره . ثم يتحدث عن التشبيه وأنه صفة الشيء بما قاربه وشاكله ، كما يتحدث عن الإشارة وأنها من غرائب الشعر وملحه ، وأنها بلاغة عجيبة تدل على بعد المرمى وفرط المقدرة . كما يذكر التبع وأن منه ما يسمونه

التجاور ، والتبع هو ذلك الضرب المشهور باسم الكناية ثم يذكر التجنيس وأنه ضروري ، ويختتم الجزء الأول من الكتاب بباب التريديد كما يستفتح الجزء الثاني بالتصدير ويتبع ذلك بحديث المطابقة وهي جمعة بين الضدين في الكلام أو في بيت شعر — ثم يذكر المقابلة وأنها مواجهة اللفظ بما يستحقه في الحكم ، فهذا أحد ما اتضح عنده .

ثم ينقل الحديث إلى التقسيم وكيف اختلف فيه النقاد فجعله بعضهم استقصاء الشاعر جميع أقسام ما ابتدأ به كقول بشار يصف هزيمة قوم :

بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه

ويدرك من نجى الفسار مثالبه

فراح فريق في الأسارى ومثله

قتيل ، ومثل لاذ بالبحر هاربه

وجعله آخرون هو هذا مع زيادة تأتي تدريجاً وترتيباً ، فصعب على متعاطيه لهذا وقل جداً ، وأحسنه قول زهير بن أبي سلمى :

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا اطعنوا

ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنوا

فإنه أتى بجميع ما استعمل في وقت الهياج ، وزاد ممدوحه رتبة ، وتقدم به خطوة على أقرانه ، يقول ابن رشيق ولا أرى في التقسيم عديل هذا البيت ، ويلي في بابه قول عنترة :

إن يلحقوا أكرر وإن يستلحموا

أشدد ، وإن يلفوا بضنك أنزل

وهكذا له رأى في أكثر الذي يحكى .

ويتحدث بعد عن التسميم وأن قدامة بن جعفر سماه التوشيح ، والذي سماه تسيماً على ابن هارون المنجم وابن وكيع يسميه المظمع وهو أنواع . . .

به كيت وكيت» وأصعب الرثاء ما تشابكت فيه
العواطف كرثاء جليلة لزوجها حين قتله أخوها جساس
فقلت :

يا ابنة الأقوام إن شئت فلا

تعجلى باللوم حتى تسألى

ومن صعبه أيضاً الجمع بين تعزية وتهنئة ، ومن
أشده صعوبة أن يرثي الشاعر طفلاً أو امرأة ، ومن
أشجاء مرثية ابن الزيات لأُم ولده تلك التى يقول فيها :

آلا من رأى الطفل المفارق أمه

بعيد الكرى عيناه تبتران

رأى كل أم وابنها غير أمه

بيتان تحت الليل ينتجيان

وبات وحيداً فى الفراش تحته

بلا بل قلب دائم الحفقان

يقول : ورثاء الأطفال يكون بذكر محابيلهم ،
وما كانت الفراسة تعطيه فيهم ، مع التحزن لمصابهم
والتفجع بهم كالذى صنع أبو تمام فى ابني عبدالله بن
طاهر .

وعنده أن الاقتضاء والاستنجاز ينبغى فيهما البعد
عن خشونة اللفظ ، وفرق ما بينهما وبين العتاب أنهما
لطلب حاجة ، أما العقاب فلطلب الإبقاء على المودة
والمراعاة ؛ وللعقاب طرائق فنه ما يمازجه الاستعطاف
والاستتلاف ، ومنه ما يداخله الاحتجاج والانتصاف ،
وقد يعرض فيه المن والإجحاف مثل ما يشركه الاعتذار
والاعتراف ؛ وأحسن الناس طريقاً فى عتاب الأشراف
شيخ الصناعة وسيد الجماعة أبو عباد البحرى كما أن له
هو فيه قصيدة عاتب بها القاضى جعفر بن عبدالله
الكوفى ومنها :

وعلى هذا النحو يمضى الرجل فى الجزء الثانى يذكر
الاستطراد والتفريع والالتفات والتعميم والمبالغة
والإيغال والغلو والتشكيك ، والحشو وفضول الكلام
والاستدعاء والتكرار ، ونفى الشيء بإيجابه ، والتضمين
والإجازة ، والاتساع والاشتراك والتكرار والتغاير .
وبالجملة فانه أتى على أكثر ما تضمنته كتب
البلاغة فيما بعد تحت الفنون الثلاثة التى انقسمت إليها ،
وهى المعانى والبيان والبيدع .

* * *

ثم يأخذ ابن رشيق فى باب آخر يسميه « التصرف
ونقد الشعر » ويريد بالتصرف أن يقول الشاعر فى جملة
أغراض الشعر بحيث لا يكون فى النسيب أبرع منه فى
الرثاء ، ولا فى المديح أنفذ منه فى الهجاء ، ولا فى
الافتخار أبلغ منه فى الاعتذار ، ولا فى واحد من
الأغراض أبعد منه صوتاً فى غيرها . . . فانه إذا كان
كذلك حكم له بالتصرف . ويجزه ذلك إلى ذكر أشعار
الكتاب ، وأنهم أرق الناس فى الشعر طبعاً ، وأملحهم
تصنيعاً ، وأحلامهم ألفاظاً وأطفهم معانى ، وأقدرهم
على تصرف وأبعدهم من تكلف .

ويخرج من ذلك إلى الخوض فى خصائص كل
غرض ، فالنسيب حقه أن يكون حلو الألفاظ رسلها ،
قريب المعانى سهلها ، غير كز ولا غامض .

والمديح : يسلك فيه الشاعر طريقة الإيضاح
والإشادة بذكر الممدوح ، مع جزالة الألفاظ ونقاوتها .
والافتخار هو المدح نفسه إلا أن الشاعر يخص به
نفسه وقومه ، وكل ما حسن فى المدح حسن فى
الافتخار .

والرثاء ليس بينه وبين المدح إلا أن يخلط به شيء
يدل على أن المقصود به ميت مثل « كان » أو « علمنا

وقد كنت لا آتى إليك مخاتلاً
لديك ولا أثنى عليك تصنعاً
ولكن رأيت المدح فيك فريضة
على إذا كان المديح تطوعاً
فقلت بما لم يخف عنك مكانه
من القول حتى ضاق مما توسعاً
وهى طويلة .

وأما الوعيد والإنذار فما لا يلجأ إليه الشاعر إلا
لضرورة ؛ والهجاء خيره ما تنشده العذراء في خدرها
فلا يقبح بمثلها كقول أوس :
إذا ناقة شدت برحل وغمرق
إلى حيكم بعدى فضل ضلالها
وقول جرير :
لو أن تغلب جمعت أحلامها

يوم التفاخ لم تزن مثقالاً
وأما الاعتذار ، فأولى بالشاعر ألا يأتي ما يعتذر منه ؛
فإن اضطره المقدار إلى ذلك وأوقعه فيه القضاء فليذهب
فيه مذهباً لطيفاً ، وليعرف كيف يأخذ بقلب المعتذر
إليه ، وكيف يمسح أعطافه ، ويستجلب رضاه .
وأما الوصف فالشعر إلا أقله راجع إليه ولا سبيل
إلى حصره أو استقصائه .

تلك أبواب الكتاب الوثيقة الصلة بالشعر ونقده
وبيان محاسنه وآدابه ، ومنهجه فيها أن يسوق للظاهرة
النقدية أو البلاغية تعريفاً ، وقد يكون ذلك التعريف
منقولاً ، وفي أحيان كثيرة يذكر ذلك كأن يقول :
« وقد نقلت هذا الباب إلا ما لا خفاء به على أهل
التمييز » . ولكن شخصية ابن رشيق لا تمحى في خلال
النقول وإنما تبقى واضحة ظاهرة بينه ، وذلك مما يعقب
على الرأى ينقله ، فتارة يوافق المصدر الذى أخذ منه

ويظهر استحسانه إياه ، ويقيم الدليل على الاستحسان
وأخرى يرد الرأى ويرفضه ، ويقيم في مكانه رأياً يكون
أباً عنده ، ثم الشواهد التى يختارها تدل على بصر بجيد
الشعر ومنتهى ، ومعرفة بمواقع الجمال في فن الكلمة ،
ولا غرابة فهو شاعر مثلاً هو ناقد ، وقد قال جزل
الشعر قبل أن يؤلف كتاب العمدة ، فجاء الكتاب صنع
خير ، مع ما ضمنه من أبيات وقطع له تم عن شاعر
فحل ، وقد أحصيت من ذلك جملة في كتابي « ابن
رشيق القيرواني » أحد كتب « نوابغ الفكر » الذى
صدر عن دار المعارف .

أما عن الأبواب التى جاءت في الكتاب ولا تتصل
بالشعر ولا بصنعة من قريب فمنها باب في أنساب العرب
 وآخر في وقائعهم وأيامهم ، وبدأه بالحديث عن النبي
صلى الله عليه وسلم وغزواته ، وباب عن ملوك العرب
وفي ثلاثة الأبواب يذكر أن ما يجئ به فيها ليس على
جهة الاستقصاء ، فإن آخرين غيره استقصوا ذلك
وأحاطوا به ، واعتماداً على كلمته تلك وعلى أدلة أخرى
نفيت أنا أن يكون الرجل مؤرخاً أو من ثقات المؤرخين
مخالفاً بذلك من ذهب إلى اعتباره أحد رجالات التاريخ (١)
ثم يعقد باباً يذكر فيه الخيل وشياتها وكرامها ، ثم
يذكر باباً يتحدث فيه عن صلوات الشعراء وجوائزهم ،
ويختتم به الكتاب ، ويقول فيه : إن أصل الجائزة أن
يعطى الرجل ما يجزه لينذهب إلى وجهه ، وكان الرجل
إذا ورد ماء قال لقيمه : أجزنى أى أعطني ماء حتى
أذهب لوجهتى ، وأجوز عنك ؛ فكثرت حتى جعلت
الجائزة عطية قال الراجز :

يا قيم المساء فدتك نفسى

أحسن جوازى وأقل حبسى

ثم ينقل أن ابن قتيبة قال : أصل الجائزة والجوايز

(١) راجع ذلك كله في كتاب « ابن رشيق ونقد الشعر » رسالة الماجستير .

وقد اختصره أبو عمر عثمان بن علي بن عمر الصقلي كما اختصره ونبه علي أغلاطه الأعلام الشنمري المتوفى سنة ٥٤٩ هـ ، وسمى مختصره هذا : مختصر العمدة والتنبية على أغلاطه ، ومثل ذلك ما صنع موفق الدين البغدادى ، ونسخة خطية من مختصر الصقلي لا تزال قائمة في مكتبة بلدية الإسكندرية ، والنية أن أحققها وأرجو أن أعان علي ذلك قريباً .

* * *

أما أصول كتاب العمدة فمنها خطية في دار الكتب العربية بالقاهرة ترجع إلى سنة ٦٦٩ هـ وهي أقدم مخطوطاته ، وثمت أخرى يرجع تاريخها إلى سنة ٩٢٣ هـ وهناك أخريان كتبنا سنة ١٢٩٨ وأقدم المخطوطات أصحها وإن كان فيها سقط واضطراب في مواضع ، وقد بينت ذلك جميعه في رسالتى آتفة الذكر .

وأما طبعاته فقد طبع في تونس جزء منه كما طبع في مصر كاملاً ثلاث مرات . وأصح هذه الطبعات جميعاً هو طبعة حجازى سنة ١٩٣٤ ، ومع ذلك فالكتاب جدير بأن يعاد تحقيقه وإخراجه في صورة تكون أوفى وأكمل .

أن عبد عوف بن أصرم من بنى هلال بن عامر ابن صمصمة ولي فارس لعبدالله بن عامر ، فمر به الأحنف بن قيس في جيشه غازياً إلى خراسان ، فوقف لهم على قنطرة الكر فجعل الرجل ينتسب فيعطيه على قدر حسبه ، فكان يعطيهم مائة مائة ، فلما كثروا عليه قال : أجزوهم فأجزوا ، فهو أول من سن الجوائز ، قال الشاعر :

فدى للأكرمين بنى هلال

على علائهم عمى وخالى

هم سنوا الجوائز في معد

فصارت سنه أخرى الليالى

ثم يمضى على هذا النحو يذكر البدره وأنها سميت بذلك لوفورها . . . والصلة وأنها ما أخذه الرجل من السلطان أول ما يتصل به .

* * *

ذلك هو كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده ، وتلك موضوعاته وأبوابه ، وهذا هو منهج ابن رشيق فيه ، وخير من ذلك في التعريف به الرجوع إليه فإن فيه لأدباً جماً ونقداً يستأهل الدراسة وإطالة الوقوف .

